

نحرم عالم جريبر :

أندريه مالرو

André Malraux

فنه وتفكيره

للاستاذ على كامل

—>>><<<—

لعل من النادر أن ترى بين أدباء الغرب المعاصرين أديباً يمثل روح العصر الحاضر مثل الأديب الفرنسي الشاب أندريه مالرو . وهو من هذه الناحية ومن حيث تأثير فنه على عقلية شباب هذا الجيل الذي نعيش فيه يقف إلى جانب الكتاب الكبير أندريه جيد . إلا أن كلا منهما يتميز من حيث المشكلة التي يطرحها ويسعى لحلها . فأندريه جيد يكاد يقتصر فنه على معالجة المشكلة الجنسية التي يعتبرها مشكلة الشاكل ، بينما يطرق مالرو الشخصية الإنسانية بأكملها ، بكامل غرائزها ساعياً لتحديد موقفها في هذا العصر المضطرب الطافح بالانقلابات والتطورات .

كان أندريه مالرو منذ ابتداء حياته الأدبية كاتباً اجتماعياً لا يستطيع أن يتصور كيف يمكن للأديب أن يعتمد عن معالجة مشاكل المجتمع الذي يعيش فيه واتخاذ موقف محدد حياله . كان ألد عدو لذلك النفر من الأدباء الذين اتخذوا من حياة الفكر مذهباً أسموه (الفن للفن) أو (البرج العاجي) يقيمون فيه غير عابئين بما يدرر حولهم من مآسي الحياة ونكباتها حتى بلغ الأمر ببعضهم إلى اعتبار أن مجرد المساس بمقائق الحياة المحزنة الدامية تشويه « لجمال » فهم !! إن هذه الزمرة من الأدباء في نظر مالرو ونظرائه من الأدباء الاجتماعيين ما هي إلا طائفة من المرائين الذين اتخذوا القلم سلماً للوصول والنفعية ، ولم قبل كل شيء بمعلول — بوعى أو بغير وعى — لخدمة مصالح الطبقات الميزة في المجتمع الإنساني ، وهذه الطبقات لا يهمها معالجة مشاكل الحياة القاسية لأنها لا تعاني ويلاتها بل من مصلحتها — إذا لحثها في طريقها — التناضى عنها وتعمد تجاهلها ؛ لأن أنانيتها لا تتفق واقتضاح الخلل في المجتمع الذي تعيش على حساب تماسكه ، وتصدقة المجد على جاحم شهادته

على أن مالرو لم يقتصر على استخدام قلمه لخدمة المجتمع الإنساني، بل كان يهب كلما سنحت الفرصة ليخدم بقوة السلاح المبادئ السامية التي يؤمن بمدالتها . فلم تكذب تنشب ثورة الصين التحريرية حتى سافر إليها يعمل إلى جانب جيوش الوطنيين في سبيل المثل الأعلى الذين يدافعون عنه . وعندما قامت الثورة الأسبانية الجمهورية بادراً بالسفر إلى أسبانيا ليعمل في جيوش الجمهورية الثالثة كطيار مدافعاً عن سماء مدريد الشهيدة . وأخيراً لم تكذب تحر فرنسا على ركبتيها عام ١٩٤٠ صريمة الخيانة حتى عاد مالرو إلى حياة الكفاح العملي فأبى أن يهجر وطنه في محنته وانضم إلى المعصابات الفرنسية الداخلية ليكافح الغاصب . وعلى رغم هذه الحياة المضطربة الخطرة لم يهمل مالرو قلمه وهو سلاحه الأول للتعبير عن تفكيره فاشتمل في كتابة قصة طويلة من ثلاثة أجزاء بعنوان : (الصراع مع الملاك) La Lutte avec L' Ange وانتهى من الجزء الأول وهو (أشجار التنجرج) Les Noyers de l' Altenburg الذي نشر في سويسرا عام ١٩٤٣

كانت أول أعمال مالرو إصداره كتاباً صغيراً بعنوان : (إغراء الغرب) La Tentation de l' Occident وهو عبارة عن رسائل يقارن فيها الكتاب بين المدينتين : الشرقية والغربية ، ونحس حين قراءتها بأله وخيبة آماله في مدينة الغرب . وسرعان ما لفت هذا الكتاب الأنظار إلى مؤلفه الذي أحس النقاد بنواحي التجديد في تفكيره وما يخبزن في صدره بما يبشر بظهور لون جديد من ألوان الأدب العالمي . وفي عام ١٩٢٨ ظهر كتاب مالرو الثاني الفاتحون Les Conquérants وهو أقرب إلى تحقيق صحفي منه إلى قصة . وفي عام ١٩٣١ ظهر كتابه الثالث (الطريق الملكي) La voie Royale . وفي عام ١٩٣٣ أخرج مالرو قصته : (الطبيعة الإنسانية) La Condition Humaine التي نال بها جائزة جونغكور لذلك العام ؛ وهي أكبر الجوائز الأدبية الفرنسية .

وتفكير مالرو الذي يسيطر على جميع أعماله يتحدد منذ صدور كتابه الفاتحون ثم يجلو ويبلغ أقصى وضوحه في (الطبيعة الإنسانية) . كانت هاتان القصتان حدثاً جديداً في الأدب الغربي

إذ لم يسبق أن عالج الفن القصصى مشاكل المدنية الغربية بالطريقة التي عالجها بها مارلو في هذين الكتابين ، وسار على نهجهما في كتبه التالية ؛ وذلك من حيث التجديد في الفكرة وحرارة الأسلوب وطهارة الإخلاص .

يرى مارلو أن الإنسان منذ فجر التاريخ يميل « بطبيعته » إلى الثورة على الأمر الواقع وتحسين الحالة الراهنة واكتشاف ما يحيطه من المجهول ، وكانت الأديان أقوى وسيلة تهدئة هذا الجروح الطبيعي وإطفاء هذا الغليان الفرزي ، وظل تأثيرها قوى الفعول مدى قرون طويلة وأحقاب عديدة . ولكن الآن والمدنية الغربية قد بلغت مرحلة لا احترام فيها للعقائد ولا مراعاة لسنن الأديان ، بل ولا اعتبار للأمس التي قامت عليها هذه المدنية التي أوشكت أن تنهار دماغها بعد أن طفحت القلوب بالشك في قيمتها . الآن ، ما هو موقف (الإنسان) و(النفس الإنسانية)؟ ما هو موقف الفرد الأوروبي أو غير الأوروبي إذا كان من أبناء المدنية الحديثة المتأثرين بتياراتها التحررية من كل قيد تقليدي؟ يرى مارلو أن الإنسان الجديد يقف أمام أحد أمرين لا ثالث لهما : فإما الاستسلام للأمر الواقع والتزدي في هذه الفوضى الفاشية التي لا ضابط لها ولا حياد فيها ؛ وإما التعلق بمثل أعلى لخدمة نفسه وخدمة المجتمع البشري كما يتعلق الفريق المحتضر بقارب النجاة .

أما الأمر الأول فهو طريق الضمءاء فضلا عن أنه لا يتضمن جمال الإحساس بالقيام بعمل سام جميل . وأما الأمر الثاني فهو الطريق السوى الطبيعي لذوى النفوس العالية ، والإنسانية الواسعة ، وهو الطريق الذي اختاره أندريه مارلو لأبطاله معسوراً حياتهم وطريقة تفكيرهم ، وضروب تضحياتهم وسمو إيمانهم . فنرى (جارين) في قصة (القاتحون) و(كيو) في قصة (الطبيعة الإنسانية) شخصيتين من تلك الشخصيات التي لا تستطيع الخضوع لحياة لا غرض لها إلا قضاء أيام متشابهة مملة . فهما يمانيان ذلك المرض الذي لا يختلف كثيراً عن المرض الذي يسمونه مرض القرن والذي — كما يرى مارلو — هو بالنسبة لفئة من الناس عرض جميع القرون ... إن هذه الدنيا لا تكفيهم . إنها لا قيمة لها إذا لم تمنحهم الفرصة لانفجار كل نواحي السكفاح والنشاط فيهم . إن حياتهم لا مبرر لها ولا قيمة إذا لم يحققوا للإنسانية أفكاراً سامية .

ولا كانت كل مصائب المجتمع الحاضر مبمبها الظلم الاجتماعي وعلاجها إيجاد مجتمع بشري تسوده العدالة الاجتماعية والأخاء الإنساني . لهذا تعدد مارلو اختيار أبطاله من رجال المثل العليا في السياسة والاجتماع . فإصلاح المجتمع في نظره وتسييره في الطريق الذي تفرضه روح العصر هو الأساس الذي يفرضه لايرجى إصلاح في العلم أو الفن أو الأدب أو الأخلاق أو غيرها . كان (جارين) متأثراً على كل شيء ، كان متأثراً على المجتمع ، كان متأثراً على الغرب وماديته فهجره إلى الصين حيث الملايين الحاشدة ينشر بينها تعاليمه الاشتراكية وبين لها حقها في الحياة . كان متأثراً على الدين لأن الأديان في نظره كانت دائماً على مر العرون هي البناء الذي تهدأ عنده ثورة النفوس البشرية ويخمد جوحها . كانت الغراء والملاذ الأخير لكل منكوب (إذ كيف يمكن لمصاب بالبرص — كما يقول — أن يستسلم لمصيره ولا يسم الآبار التي يقترب منها إذا لم يفيض قلبه بالأمل في حياة ثانية حيث تروضه العدالة عن مصيبته وبنال النعم الأزلى ؟) .

فجارين يريد أن يمش واقعياً بكل ما في هذه الكلمة من معان . إنه يريد أن يحقق الجنة الأرضية لأنه مثالي يؤمن بالمثل العليا ويؤمن بإمكان تحقيقها بالجهد والتضحية . إنه يستهين بالمخاطر ويواجه الموت إلى جانب الأحرار الصينيين في ثورة كتفرون راضياً مطمئناً . ومثل شخصية جارين نرى شخصية (كيو) وشخصية الطالب (تشن) في قصة (الطبيعة الإنسانية) . هذين الشاين الصينيين اللذين آمننا إيماناً المؤمن بدينه ببدالة قضية الصين في جهادها التحرري . هذه الشخصيات الثلاث زراها جميعاً تلقى بنفسها في ذلك المحيط الثوري بقوة عنيفة ودافع خفي مستعدين كل تضحية ؛ لأن المثل الأعلى عندهم دين كسائر الأديان ، والدين في حاجة إلى شهداء . ومن ذلك نرى أن أندريه مارلو لا يمتد أن هناك فرقاً بين هؤلاء المثاليين وأولئك المتدينين الأوائل الذين كانوا يحطمون الأوثان وأقصى آمالهم في الحياة أن يتعدوا من أجل عقيدتهم الدينية . فنصور هذا النوع الشائع من الشبان المثاليين المتحمسين هو أهم ما يطبع كتب مارلو بطابع القوة والعظمة .

وللغاري أن يتساءل لم اختار مارلو أحداث قصته (القاتحون) و (الطبيعة الإنسانية) في الصين النائية كما ذكرنا . أليس في بلاد الغرب مجال لظهور هذه الشخصيات ؟ ألم يجد في غير الصين

وبعد سنتين طويلة في تلك البلاد الشريفة يعود إلى وطنه الأتراس حيث يموت والده (جد الكاتب) بعد وصوله بفترة قصيرة . وفي الأتراس يشترك في (أحاديث التنبرج) وهي أحاديث تدور على موضوعات معينة في كنيسة قديمة حيث يجتمع تحت زعامة عمه (والتر) نخبة من المثقفين والمثاليين والأساتذة من مختلف البلدان ، وفي عام ١٩١٥ تقوده الحرب إلى جبهة القتال ، وهناك حيث يشترك في هجوم بمساعدة الغازات السامة . وهناك يترك المؤلف والده مفشياً عليه في ساحة القتال ؛ منبهك القوى أثر المناظر الوحشية التي شاهدها ومن تأثير الغاز . يتركه ليمود إلى نفسه ، وعندئذ يبدأ القسم الثالث من القصة فترى أنفسنا في عام ١٩٣٩ نصحب المؤلف في سيارته المدرعة حيث يواجه مع رفاقه الموت الحاصد الذي يخرجون منه بأعجوبة فينظرون إلى العالم تحت ضوء فجر جديد لامع ، وبميون جديدة ، عيون نسيت الماضي ولم تعد تعرف غير الحاضر . وهنا تنتهي قصة (أشجار التنبرج) أول جزء من قصة (الصراع مع الملاك) .

ومنذ بداية هذه القصة أيضاً في ذلك السجن الموحش الممزول عن العالم الخارجي ، نرى أندريه مارو يعود إلى موضوعه الرئيسي وشاغله الأول في كل ما كتبه وهو (الإنسان) اسمه وهو يقول : (منذ عشر سنوات لا يشغلني ككاتب غير موضوع واحد هو الإنسان . ذلك هو الموضوع الأساسي في فني) . وهذا الشاغل نلته يمتلك والده أيضاً حين يقص علينا مارو حياته وروى لنا (مقابلاته) مع الإنسان ، وهي مقابلاته الشخصية مع الموت والقسوة الإنسانية والقدر النامض . يقول والده : (إن اللغز الأكبر ليس في أنه ألقى بنا دون حساب بين المواد المتفجرة الغزيرة وبين الكواكب . بل إننا ونحن في هذا السجن كنا نستمع من أنفسنا صوتاً قوياً لتكذب واقع حياتنا وهو أننا كائنات لا وجود لها) وهذا اللغز هو ما تريد (أحاديث التنبرج) أن تكشفه . فكل المناقشات تدور حول هذه المسألة . هل يمكن إيجاد تحديد معين لمعنى كلمة إنسان ؟ (إن الإنسان بمعناه الحقيقي ما هو إلا أسطورة . هو حلم في ذهن المفكر) . فما الذي نعرفه عن الإنسان ؟ إننا لا نكاد نعرف شيئاً (حتى الثقافة لا نملئنا شيئاً عنه) . إنها تملأنا بكل بساطة ماهية الرجل المثقف بقدر ما هو عليه من ثقافة) إننا نعرف

بجلاء لظهور الأبطال وأعمال البطولة ؟ إن مارو العالمي التفكير يتبع النهضات القومية أينما هبت . فكما اشترك بنفسه في كفاح الصينيين القوي مما أوحى إليه كتابة قصته هاتين ، كذلك حارب في صفوف الجمهوريين الأسبان كما عرفنا ، وكتب عن الجمهورية الشابة قبل أن تتدها الرجعية الفاشية كتابه المشهور (الأمل) Espoir (١٩٠٧) . لقد وجد مارو في هذه البلاد الحية بمحركاتها الشعبية مجالاً خصباً لذلك النوع من الأبطال الذين اختارهم لقصصه . فهو يرى أن العالم الغربي أصبحت تسوده للأسف الوطنية المتعصبة . فالحدود مغلقة ، والمادية تطغى على كل شيء ، والفردية يلغسها المرء أينما حل . فأوروبا الحاضرة في نظر مارو لم يعد فيها إلا نوعان من الكفاح : الأول كفاح العالم الذي يفنى السنين في اكتشاف علمي وهذا الأمر ليس في متناول غير المثاليين المتخصصين ، والثاني كفاح رجال الأعمال لتكوين الأموال مما صبغ الحياة كلها بالمادية البذيئة التي لا تعرف الرحمة . أما هناك ، هناك في الشرق البعيد حيث ألف بين الناس البؤس المشترك والشقاء المميم ، حيث وحد بين قلوب الملايين الفقيرة الإيمان القوي والقلق العام والحساسية المزهفة ؛ هناك الحقل البانح لأحباب المبادئ السامية والمثل العليا الجريئة التي سرعان ما تشبث بها الجماهير وتتفانى في خدمتها بمجرد إحساسها بأنها طريق الخلاص ، واقفة منها موقف المؤمن بدين جديد جاء ليغير حياته ويبيعه بشئاً جديداً .

ولقد كانت في الحرب الحاضرة ومحنة فرنسا مادة غزيرة أمام أندريه مارو لدراسة الشخصية الإنسانية في ظروف جديدة وأماكن غير الأماكن التي وقعت فيها حوادث قصصه السابقة . فكتب كتابه الأخير (أشجار التنبرج) وهو كما ذكرنا الجزء الأول من قصة طويلة في ثلاثة أجزاء بعنوان (الصراع مع الملاك) . و (أشجار التنبرج) عبارة عن ثلاثة أقسام : القسم الأول تقع حوادثه في يونيو عام ١٩٤٠ في أحد السجون في بلدة شانز بفرنسا . وفي القسم الثاني يصف الكاتب حياة والده حتى الحرب العالمية الأولى فتعرف منه أن والده أراسي المولد بقي في الأتراس حتى عام ١٨٧٠ ثم عين مدرساً في جامعة استانبول واختير بعد ذلك مستشاراً للجنرال أنور باشا ، ثم أرسل في مهمة إلى أفغانستان